بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الترجمة العربية

تحتل كتب الرحلات مكانة هامة فى ثبت المصادر التى تتضمّن الكثير من المعلومات عن البلدان والأقاليم والشعوب فى مختلف العصور ، ومع ذلك فإنها لم تجد العناية الجديرة بها من قِبَل المشتغلين بالدراسات التاريخية والاجتماعية ، رغم ما تحفل به هذه الأسفار من مادة تلقى ضوءاً على شتى جوانب المجتمعات فى أوربة والشرق على السواء ، وتمدّنا بذخيرة طيبة من المعلومات التى نفتقدها فى الكتب السياسية والحوليات التى تكون — فى العادة — قد دُوِّنت تحت دوافع معينة ، فتطمس أحيانا — عن قصد وتدبير — أموراً لو تكشّفت لبدّلت نواحى كثيرة من التاريخ المدوّن ، ومجمل القول إن كتب الرحلات ترقى إلى أن تكون من المصادر الأصلية فى تبيان الأحداث الرئيسية والجانبية الغامضة وتنقلها من هامش الفكر إلى بؤرة النظر والإدراك الصحيح والتفسير المعقول المطابق لحقيقة الواقع ، ثم إنها لا تخلو — بنسب متفاوتة بين بعضها والبعض الآخر — من مادة لا تتوفّر فى سواها ، وذلك بسبب تغلغلها بين طبقات الشعب التى قلّ أن تعبأ بها كتب التاريخ المألوفة ، ومن ثم كانت الرحلات ذات أهمية خاصة من حيث العنصر التاريخى ، وهى فى الوقت ذاته تكون — فى أغلب الأحيان — بعيدة عن التحيّز ؛ هذا إلى أن ما تتضمنه إنما هو نتيجة مشاهدة عيان فى أكثرها .

ولقد اهتم الغرب بالرحلة منذ ظهور الإسلام اهتماماً يسّرته لهم سعة الرقعة الإسلامية العربيـة الجديدة ، ودفعتهم إليه رغبتهم فى الوقوف على أحوال

شعوب هذه الأقطار والتعرّف عليها عن قرب ، إلى جانب عوامل اقتصادية تتمثل على وجه الخصوص فى التجارة أو كعملاء فى تناول السلع ،هذابالإضافة إلى دوافع روحية ، فليس من جدل فى أن المسلمين الأوائل كانوا يرحلون من بلد إلى آخر ـ رغم اختلاف الأقطار ـ جرياً وراء حديث يأخذونه عن ثقة حجة لا يرقى إليه الشك دون اكثرات بما يلاقونه فى سبيل ذلك من مشقة بالغة وما يصادفونه من أخطار الطريق ، وما يصيبهم من مكابدة مادية تكاد تجعل المطمع عسير التحقيق ،والمنشودَ صعبَ المنال ؛ ولا مشاحة فى أن تاريخ العرب حافل بالرحالة الذين نعرف أسماءهم وإن ضاعت آثار معظمهم ، وبقى البعض منها كاملاً غير منقوص أو فى صورة نتف مبعثرة فى ثنايا الكتب ، وهى جديرة بأن يتوفـــر البعض على جمعها عسى أن تتكوّن منها ومن الآثار الخطية الكاملة مكتبة تامة ـــ أو شبه تامة ـــ تُستَدْرك نواقصها على مرّ الأيام .

ولقد شهد الغرب ـ كما شهد الشرق ـ رحالة كثيرين ، لعل أذيعهم ذكراً التاجر البندقى «ماركوبولو» ثم «نيكولو دى كونتى» ، وهناك من هؤلاء أيضاً « بيرو طافور » الذى أتاحت له الفرصة أن يرحل فى النصف الأول من القرن الخامس عشر إلى كثير من بلاد أوربة وإلى مصر سفيراً وباحثاوتاجراً ورجلاً متطلعاً لمعرفة حقيقة عالم يومه الجغرافى والسياسى والدينى ، ولقدكانت هذه الفترة فترة إرهاص فى تاريخ الإنسانية إذ كانت فجر عهد جديدمن الناحية السياسية والاقتصادية والثقافية ، فقبل أن يلفظ ذلك القرن أنفاسه بسنوات قلائل سقطت القوة الإسلامية فى الأندلس ، وأخذت بعض دول أوربة تتكتّل لمضايقة مصر اقتصاديا لتعطيلها عن ممارسة نشاطها التجارى لاسيما فى تجارة

الـكارم ، كما قامت محاولات أخرى جانبية فى هذا الميدان ذاته وقبل ذلك بقرن تقريبا ـ لمقاطعتها تجاريا أو لتحويل مجرى النيل ، ووضعت فى كل هذا تقارير مختلفة على مستويات عالية سياسية ودينية .

وعلى الرغم من أن صاحب هذه الرحلة كان أثيراً لدى ملك قشتالة إلا أن الغموض يكتنف سنوات طويلة من حياته ، والواقع أن ما كُتب عنه حتى الآن لا يشفى غلة المعنّى بوضع ترجمة وافية له تُلم بدقائق عمره وتعتبر سجلاً له ، أو تتضمن الأعمال المختلفة التى قام بها ؛ ولقد كانت ضآلة المادة عنه مؤدية إلى عدم التأكد من مهبط رأسه ، فالإبهام الشديد يغشى السنوات الأولى من نشأته ، ويمتد هذا الغموض حتى ليغلف سنة مولده ووفاته ومعظم الأعوام التى عاشها

ويرجح الذين كتبوا عنه ـ وهم قلة ـ أنه وُلد فى قرطبة ، ويستدلون على صحة هذا الرأى ببعض الوثائق التى جمعها أحد الـكتاب الإسبان وإن كانت الإشارة فيها ليست صريحة كل الصراحة بدرجة تقطع الشك وتثبت اليقين بقرطبية مولده ، وإنما كان عمل الأب فيها وإن كنا لا نعرف أنفتحت عيناه ـ هو الآخر ـ فيها أم أنه طارئ عليها ، وهل وُلد ابنه « بيرو » وهو لا يزال فى قرطبة ؟ أم أنه نزح عنها ـ بسبب ما ـ إلى بلد آخر ؟ ، وإن كان « بيرو » نفسه قد أشار فى رحلته هذه إلى مقابلته لمترجم السلطان برسباى ، وهذا المترجم أشبيلى الأصل ، وذكر له رحالتنا أنه هو ذاته وُلد فى مدينة أشبيلية .

ولا يستبعد فى هذه الحال أن يـكون الأب « خوان دياز طافور » قد انتقل بالأسرة من قرطبة إلى أشبيلية حيث وُلد له « بيرو » ، وبذلك لا يكون

ثم شك فيما قاله طافور عن أشبيلية مولده؛ ثم إنه ليس هناك مايدعونا لإنكار رأيه حول مكان ولادته[1] إذ لا نستبين فى نسبته إلى إشبيلية — مكانا كانت فيه أول صرخة له — ما يجعلنا ننزل قوله عن مكان مولده منزلة الزعم؛ ونستطيع أن نخلص من هذا إلى الأخذ بأن أشبيلية كانت البلد الذى خرج فيه إلى الحياة .

وإذا كان الجدل قد قام حول مهبط رأسه فإن هناك تشككا حول عام مولده ، فليس هو بالمعروف على وجه التحقيق ، وإن رجح القول بأنه كان فى مطلع القرن الخامس عشر ، والمتفق عليه أنه كان سنة ١٤١٠ م وأنه عاش قرابة ثلاثة أرباع قرن ، إذ يُستدل من بعض الوثائق التى جمعها أحد الكتاب (واسمه رفائيل رميرز) — ومن بينها وثيقة بقلم زوجة طافور — أنه مات حوالى سنة ١٤٨٤[2] .

وقد انخرط « بيرو طافور » فى سلك الخدمة العسكرية فى « جيان » تحت لواء لويزدى قزمان الذى يهديه كتابه[3] هذا ، وحارب معه فيما بين عامى ١٤٣١ ، ١٤٣٢ حتى إذا عقدت الهدنة بين غرناطة وقشتالة قام برحلته هذه التى امتدت من ١٤٣٥ حتى ١٤٣٩ ، فلما عاد منها استقر فى قرطبة وتزوج

---

(١) يذهب Letts : Pero Tafur, Trevels and Adventures, p. 8 إلى أن ما قاله طافور لمترجم السلطان من أنه من مواليد أشبيلية إنما كان الدافع له عليه هو رغبته فى أن ينال عطفه ورعايته، لأن المترجم اليهودى كان هو الآخر أشبيلى المولد .

(٢) cf. Boletin de la Real Academia de la Historia, Vol. XII, pt. IV, 1902.

(٣) J. de la Serna & Palencia : Historia de la Literatura Espanola, Madrid 1949, p. 95. وأشكر فى هذا الموضع صديقى الأستاذ الدكتور أحمد مختار العبادى فقد أمدنى ببعض المراجع الإسبانية المتعلقة بطافور وقام بترجمتها .

فى سنة ١٤٥٢ م Dona Juana de Horozco التى أنجبت له ثلاث بنات وولداً ، ويرجح أن ابنه مات قبله .

والظاهر أن طافور كان يعتقد أنه من ذرية أباطرة الدولة الشرقية ، وتؤكد هذا إشارته إلى أن من بين أسباب زيارته القسطنطينية « رغبته فى استكناه حقيقة نسبه الذى أنبئ عنه أنه نبع فى الأصل من هذا المكان ، وأنّ له عرقاً يمتّ للعرق الإمبراطورى بوشيجة القربى » ، ثم يسوق قصةً لا نعرف مصدرها التاريخى بشأن نزاع قام بين أحد الأباطرة والنبلاء ، وانضم ابن الإمبراطور إلى صفوف الأخيرين ، وبعد مصادمات عنيفة بين المتنازعين اضطر الأمير الشاب للفرار إلى إسبانيا ، حيث عرف باسم كونت « بدور » ، وأنجب ابنا سماه دوق « استيفان إلان » واستقر به المقام فى قشتالة ، وتزوج الأمير الهارب من إحدى أخوات ملكها ، وأكرمه أهلها لما أبداه من براعة فى الحرب ضد المسلمين ، ورد طليطلة للطاعة حين تمردت على ملكها الشرعى ، حتى إذا مات هذا الأمير دفنه القوم فى كنيسة الملوك القدماء فى طليطلة ، وزينوا سقفها برسمه وهو على جواده وعليه رنكه وأسلحته » ، وهى ذات الأسلحة التى يحملها مؤلفنا طافور لأنه يمت بعرق إلى هذه الأسرة ، ونحسب أن خيال طافور كان أبعد من الواقع فى هذه الناحية ، وإن كان هو يزعم أن حنا باليولوجس الثامن قد وافقه على ذلك .

ومهما يكن الأمر فقد شغل طافور نفسه بالأمور السياسية فى بلده ، إذ نراه يساهم فى حملة هنرى كونت لبلة ، التى شنها على المسلمين فى جبل طارق ،

ولكنه لقى حتفه أمام عينى طافور الذى يمتدحه ويقول فى هـذه المناسبة « انكفأنا راجعين يرمضنا الحزن لفقدنا هذا القائد المحنك ، وانثنينا قافلين إلى قشتالة ومنها إلى سان لوكار[1] » . ولقد كانت حملة الكونت على جبل طارق حلقة من سلسلة الحروب العدوانية التى كانت تحرك أوربة الغربية لاسيما إسبانيا والبرتغال فى ذلك الوقت، والتى بلغت ذروتها فى إسقاط قرطبة والحكم الإسلامى عام ١٤٩٢ م (٨٩٧ هـ) .

* * *

استغرقت رحلة طافور الفترة الممتدة من ١٤٣٥ حتى ١٤٣٩ ، وهى فترة خصيبة من حيث الحركات التى شهدتها وسبقتها ، وكان مجال رحلته ببعض الأقطار الأوربية ومصر ، ولقى فى هذه السفرة الطويلة أحداثاً عجيبة تصور بجلاء مدى ما كانت عليه أوربة حينذاك من تأخر فكرى وفوضى سياسية ، وقد أتاح هذان العاملان الفرصة الطيبة لظهور الإقطاع الذى استشرى بصورة خطيرة فى تلك القارة ، والواقع أن الفوضى السياسية التى عمتها لم تنته بظهور الإقطاع بل لازمته وصحبته وإن ظهرت فى صور جديدة فى شتى الأقطار الأوربية إذ ذاك ، وإنما أخذ نجمها فى الأفول بظهور بعض شخصيات استطاعت أن تجمع السلطة فى يديها دون الأمراء والنبلاء والكونتات والأدواق ، ولكن هذه الشخصيات لم تستطع أن تحرر نفسها من الطابع الإقطاعى وإن كان بشكل يختلف عن سابقه ، وتمثل هذا فى قيام هنرى الثانى بإنجلترا (١١٥٤ — ١١٨٩ م) وفيليب أغسطس بفرنسا (١١٨٠ — ١٢٢٣) وفردريك بربروسة فى ألمانيا (١١٥٢ — ١١٩٠ م) ، وكان المظهر الذى

---

(١) انظر الرحلة ، ص ٣ .

ظهرت به هذه الفترة بالذات — أعنى منذ النصف الثانى من القرن الثانى عشر حتى الربع الأول من الخامس عشر — هو استتباب النظام النسبى، وكان إلى جانب ذلك تضخم شأن الكنيسة وازدياد كوادرها وتعددها حتى لقد أصبحت على حد قول أحد المؤرخين المحدثين[1] — « دولة مركزية منظمة، امتدت سلطتها القضائية على شتى الأخطاء والجرائم » ، على أن هذه البيروقراطية الكهنوتية لم تلبث أن وجدت من يعارضها بظهور جماعات ممن اصطلح العرف التاريخى — المستمد أصوله من إيحاءات القرون الوسطى — على تسميتها بالهراطقة الذين كرهوا فى الواقع امتداد سيطرة رجال الدين خارج نطاق واجباتهم الدينية ، واتساع نفوذهم اتساعا شمل جميع مرافق الحياة الآدمية اليومية ، وأصبحت الكنيسة تسيطر — بفضل ما ادعته من حقوق وخاصة هبة قسطنطين المزعومة — على مقدرات الفرد[2] .

على أن هذه الحركات المعارضة لسلطان رجال الدين — وليس للدين نفسه — وجدت استجابة من نفوس فئات قليلة ، لكنها كانت ذات أثر بارز أدى فى النهاية إلى ازدياد التضارب بين السلطتين الزمنية والروحية ، وضعف سلطان الكنيسة ، بل إن هناك من كبار رجال الدين من وقفوا ضد البابوية، ونرى إيماءة بسيطة لهذه الناحية فى رحلة طافور حيث يشير إلى ما جرى بين « مجمع بازيل » وبين البابا يوجين الرابع (١٤٣١ — ١٤٤٧ م) فقد خلعه المجمع ، ووقف « لويز دى أمارال » المعروف بأسقف « ڤيزو » فى صف القوة الزمنية ، حتى لقد كان على رأس السفارة التى غادرت البندقية إلى القسطنطينية

---

(١) Flick : Rise of Medieval Church, pp. 603–604.

(٢) Thorndike ; Hist. of Medieval Europe. pp. 197 ff.

لحمـــل الأمبراطور يوحنا الثامن وبطرك القسطنطينية لحضور جلسات هذا المجمع .

ولقد تضمنت الرحلة فى ثناياها — وفى مواضع متعددة من الكتاب — إشارات إلى مثل هذه الأمور التى كانت تسود أوربة فى ظل نظام منهار من النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، كذلك صورت المدى البعيد المحزن من الضعف الذى بلغته الإمبراطورية البيزنطية التى سقطت نهائيا بعد ثلاثة عشر عاما من انتهاء رحلة طافور ، ولم تكن الإمبراطورية فى الغرب أحسن وضعا من مثيلتها فى الشرق ، فقد بلغت ذورة الضعف بموت سجسمند ثم ابنه ألبرت الهابسبورجى الذى استقبل طافور فى برسلاو ، ولقد أدرك طافور مبلغ قوة العثمانيين إذ ذاك ، وهو فى كلامه عنهم يظهر تقديره إياهم وإعجابه بهم ، ولم يفته ذكر الأحوال فى أرمينية وسيطرة مصر التجارية فى البحر الأحمر ثم فى القسم الشرقى من البحر الأبيض المتوسط ، هذا إلى نفوذها وصلاتها بالمحيط الهندى ، وأشار فى صراحة إلى ما كانت تعانيه الكنيسة الرومانية ومنازعاتها مع الإمبراطورية الغربية .

* * *

أول ما يلاحظ على رحلة طافور أنها خلت من ذكر التواريخ التى تساعد من غير شك على تحديد قيامه بها وأوقات زياراته للأماكن المختلفة التى تضمنتها سفرته الطويلة لأقطار متعدّدة يخالف بعضها بعضاً فى كثير من مناحى الحياة وأساليبها ، غير أن ذكره بعض الأحداث الهامة وملاقاته لأشخاص معينين أمران قد يتسرا لنا أن نعرف متى قام بهذه الرحلة الممتعة ، ذلك إن إشارته فى مستهل رحلته إلى حملة كونت لبلة على طارق وملاقاته الموت غرقاً تجعلنا واثقين

من أنها بدأت فى سنة ١٤٣٥ ، إذا أنه شرع فى رحلته قبل موت كونت هنرى الذى حدث فى مستهل سنة ١٤٣٦ كما يرجح أكثر المؤرخين ؛ وإلى جانب هذا نعرف من رحلته أنه فى أثناء وجوده فى جنوة ثار أهلها على دوق ميلان الذى نصب من نفسه حاكما عليها ، وإن كان ذلك قد تم أيضا برضاء الجنويين أنفسهم ، والمعروف أن جنوة قاست كثيراً من الخضوع للمحتل الأجنبى ، فاستسلمت آونة للألمان ، ثم لأهل نابلى ، ثم لأهل ميلان من بعدهم ، وعلى أية حال فقد كانت ثورة جنوة ثورة عارمة ترجع إلى سبب هام هو أن مملكة نابلى كانت قد آلت إلى ألفونس الأراجونى الذى أصبح إيطالياً فى مشاعره واتجاهاته مما دعى الأهالى لتلقيبه « بالعظيم » ، لقباً استحقه عن جدارة بفضل عطفه على الآداب والفنون ، غير أن هذه المملكة كانت تتنازعها فى الأربعينات من القرن الخامس عشر أحزاب « أراجون » و « أنجو » ، وإذ كانت جنوة تنظر بعين الاعتبار بطبيعة الحال للفوائد المادية المترتبة على نشاطها التجارى ، بالإضافة إلى عداوتها التقليدية للأراجونيين فقد خُيل إليها أن صالحها يقتضيها الوقوف إلى جانب « أنجو » ، وسلكت بالفعل هذا السبيل ، وطبيعى أن يؤدى ذلك الاتجاه من جنوة إلى غضب « ألفونس الأراجونى » ملك نابلى ، ومن ثم كان لابد من اصطدام الجانبين بعضهما ببعض أن آجلاً أو عاجلاً ، وحدث ذلك الصدام يوم ٥ أغسطس ١٤٣٥ أمام جزيرة « پونزا » حيث دارت الدائرة على ملك نابلى «ألفونس» ، ووقع أسيراً فى أيدى الجنوية ، كما وقع فى الأسر معه بعض كبار وجوه مملكته ، فأسلموهم إلى دوق ميلان « فيليبو ماريا » الذى سرعان ما أطلق سراحه هو ومن معه ، مما أثار حنق الجنوية وغضبهم على «فيليبو» ، واندلعت هذه الثورة يوم ٢٧ ديسمبر ١٤٣٥ (١)

(١) J. C. De Sismondi : Hist. of the Italian Republics, pp. 209 — 210.

ومن هذا نستدل على أن طافور كان فى جنوة فى تلك السنة[1] .

ثم إنه يشير فى موضع آخر[2] إلى إبحاره من البندقية إلى الأرض المقدسة وكان ذلك يوم الاحتفال بعيد الصعود ١٧ مايو ١٤٣٦ ، وفى نوفمبر من العام التالى ١٤٣٧ نراه فى القسطنطينية حين أبحر إمبراطورها يوحنا الثامن باليولوجس، الذى قبل - خوفاً من ازدياد سلطان الترك - توحيد الكنيستين اليونانية والرومانية ، لكن رجال الكنيسة الشرقية رفضوا هذا الاتفاق واستقبلوا الإمبراطور بعد عودته بشتى أنواع الإهانات .

* * *

وإذا كان طافور قد بدأ رحلته هذه فى سن مبكرة ، إذ كان وقتئذ يناهز الخامسة والعشرين من عمره ، وهى سنّ لا تمكن صاحبها من رصد كل شىء يراه رصداً دقيقاً وبصورة تتضمّن تحليل الأحداث تحليلا صحيحاً ، إلا أنه استطاع - فى كثير من الدقة - أن يصف كل ما وقعت عليه عيناه وأحسّه بوجدانه ، ومع أن هذا الوجدان كان بسيطاً بل ساذجاً فى أكثر من موضع إلا أنه يشير فى وضوح إلى أن صاحبه كان فى الوقت ذاته رجلا قد تمرّس بشتى أساليب الحياة ، وليس من شك فى أنه اشتغل بالتجارة على نطاق أوسع من النطاق المحلى ومارسها ممارسة عملية ، ولا يستطيع هو - أو غيره - إنكار هذه الصفة . فصفحات رحلته تفيض بما يكشف القناع تماماً عن قيامه بعمليات تجارية ضخمة يستخدم فيها رجالا لحسابه الخاص ، وإن عمليات المقايضة التجارية لتغلب عليه - رغم تدينه - فيقدّمها على حضوره الصلاة والقداس ، ولكنه

---

(١) رحلة طافور ، ص ١١ .

(٢) رحلة طافور الفصل الخامس ، ص ٤١ .

لا يكاد يفرغ منها حتى يهرع إلى الكنيسة ليؤدّى واجب الرب ، كما أدّى حقوق الفرد الإنسان .

كذلك نستدل من كتاباته على حبه للرحلة حباً جرى فى دمه وحمله على الاعتداد بالأخطار ، فقد توسّل بشتى الوسائل حتى استطاع أن يحصل على إذن بزيارة دير سانت كاترين ، فاستجاب له السلطان الأشرف برسباى وأمدّه بثلاثة جمال وسار عابراً الصحراء « التى لا حياة فيها ،ولقينا فى ذلك مشقة كبرى واكتنفنا الخطر الجسيم ، إذ كانت الحرارة قد بلغت من الشدّة حداً عجبت منه كيف يستطيع أى إمرئ احتمالها » ، واستغرقت هذه الرحلة الشاقة منه خمسة عشر يوماً ، ثم إنه وهو فى سيناء تشتاق نفسه لزيارة الهند ، ويحاول قيّم دير سانت كاترين ثنيه عن هذا الغرض ويعارضه « كل المعارضة » لكنه لا يلقى إليه سمعاً ، وإنما ينتظر وصول القافلة القادمة من الهند التى يلتقى بأحد رجالاتها وهو « نيكولو دى كونتى » الذى يحدّثه عن أخبارها وعجائبها وثرواتها ، ولكنه لا يكاد يعلم منه بإزماعه المضى إلى هناك حتى « يفضى إليه فى الحال بوجوب التخلى عن تلك المحاولة التى لا يمكن إنجازها مهما صدقت النية[1] منه » ، ويقول له فى ختام حديثه ناهيا إياه عن السفر إليها « إنى أستحلفك بالله . . . أن لا تركب هذا المركب الجنونى نظراً لبعد الشقة ،وجسامة المشقة ، وفداحة الخطر » ، ثم يعدد له « نيكولو » الصعاب التى تجعل من سفره وحده أمراً مستحيلاً[2] .

---

(١) رحلة طافور ، ص ٧٨ .

(٢) انظر الرحلة ، ص ٨٠ .

وإن حبه للمخاطرة ليتجلى فى رغبته فى رؤية السلطان العثمانى فى عقر داره، فيلتمس الإذن فى ذلك من « دراجس » نائب الإمبراطور يوحنا الثامن ، ويستجيب له « دراجس » ويرسل فى طلب فئة من التجار الجنوية ليدبروا لصاحبنا رؤية السلطان مراد الثانى الذى يبعث فى طلبه حين يعلم بخبر مقدمه ، فيلتقى به ويضمّن صفحات رحلته وصفه الجثمانى ووصف حاشيته وكيفية إقامته وخروجه للصيد، بل إنه ليدخل معسكرات الأتراك ويلم بكل ما فيها ،ويصف ذلك كله وصفاً دقيقاً ربمافات الكثيرين ممن عاشوا فى البلاط العثمانى أن يذكروه تفصيلا كما ذكره طافور ؛ وليس من شك فى أن بصيرته اللماحة قد ساعدته على وصف القاهرة وشوارعها الحافلة إذ ذاك وأسواقها وما بها من مختلف التجارات الواردة من شتى أنحاء العالم، كما يصف الخلاقين والطباخين، ولا يفوته ذكر الفواكه وأطباق المحشى والسقائين ، وهذه صور انقرض الكثير منها ولكنها كانت يومذاك مألوفة ، وإنه ليضيف إلى معلوماتنا عن الإسكندرية شيئا جديداً حين يشير إلى «مكان كبير بمينائها لاستقبال النصارى القادمين والراحلين على السواء » ، ثم يشير إلى دمياط حيث يطلب من واليها جلد تمساح سأله إياه ملك قبرص، ولا تفوته النكتة هنا فيقول « إن رائحته (أى رائحة الجلد) كانت شديدة الكراهية،ولم يكن أحب إلى نفسى من أن آخذ معى ابنة الوالى اللطيفة بدلاً من جلدهذا التمساح ».

والرحلة حافلة إلى جانب ذلك بوصف المدن الأوربية التى زارها طافور ، وهو وصف فريد فى مادّته من حيث القيمة التاريخية .

• • •

أما الرحلة نفسها — كما كتبها طافور — فقد ظلت مدة أربعة قرون رهن الظلام حبيسة المخطوطة ، ولم يقيض لها أن ترى النور إلا فى سنة ١٨٧٤

حين قام الأديب الإسبانى Marcos Temerez de la Espada (المتوفى عام ١٨٩٨) بنشرها لأول مرة باللغة الإسبانية تحت عنوان Andanças é viajies de Pero Tafur per diversas partes del Mundo avidos (1435-1439) أى رحلات ومشاهدات بيرو طافور لأجزاء مختلفة من العالم (١٤٣٥-١٤٣٩)، على أنها لم تلق ما تستحقه من الاهتمام الجدير بها، فلم تظهر لها سوى ترجمة واحدة كاملة باللغة الإنجليزية قام بها «مالكولم ليتس» عام ١٩٢٦ ونشرت فى مجموعة Broadway Travellers التى كان يشرف عليها سير دينسون روس والأستاذة إيلين پاور بعنوان Pero Tafur : Travels and Adventures، أما الترجمة الكاملة الثانية فهى هذه الترجمة العربية.

• • •

على أن هناك طائفة من العلماء والمؤرخين والباحثين الأوربيين استعملوا النص الإسبانى استعمالا مجزوءاً، وكان أولهم الوثائقى «ماس لاترى»، إذ اعتمد عليها بعد عشر سنوات من ظهورها فى صفحتين فقط فى كتابه «تاريخ أساقفة جزيرة قبرص اللاتين Histoire des Archeveques Latins de l' ile de Chypre (Arch. de l' Orient Latin, II, Paris 1884)؛ ثم وردت الإشارة إليها فى السنة التالية (١٨٨٥) حين استمد منها العالم الألمانى «هايد» ماجاء بها من معلومات خاصة بالتجارة وذلك فى دراسته القيمة الفذة لهذا الموضوع الذى اعتمد فيه كلية على المصادر والوثائق الأولية فى مختلف دور المحفوظات الأوربية وخطيات العصور الوسطى وضمنها كتابه Histoire du Commerce du Levant au Moyenage. وكان استعماله للمادة التى ذكرها طافور - نتيجة مشاهدته وخبرته - على مجال أوسع من مجال سابقه «ماس لاترى».

فلما كان مطلع القرن الحالى عمد المؤرخ الألمانى شولته فوضع كتابه المسمى
Geschichte der Mittelalterlichen Handels und Verkehrs zwischen Westdeutschland und Italien mit Ausschluss vsn Venedig (1900)
وفيه تكلم عن مدينتى بروجس وأنتورب وتضخمهما التجارى فى العصور الوسطى المتأخرة ، وأسواقهما المختلفة والبضائع الموجودة بهما ، متخذاً مما ذكره طافور فى رحلته هذه مادة لدراسته ووصفاً لمشاهد عيان لا يرقى إليها الشك فيما احتوته من أخبار .

ثم جاء العالم الفرنسى المؤرخ هنرى بيرين فرسم فى كتابه History of Belgium صورة ثانية لهاتين المدينتين السالفتى الذكر وأهميتهما وتوسعهما التجارى فى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى معتمداً فى ذلك على رواية طافور ، ولكنه نقل كل ما جاء عنهما سلفه « شولته » الألمانى ، ولم يستعمل هو نفسه النص الأصلى الذى نشره « لا إسبادا » ، ومع ذلك فقد جاء عرضه وتحليله واستنباطاته دقيقة فى عرض ملامح الازدهار التجارى لأنتورب وبروجس ؛ فلما كان ختام الربع الأول من القرن الحالى نشر وليم ميلّر بحثين فى المجلة التاريخية الإنجليزية (English Historical Review, 1923 & 1926) جعل محورهما إمبراطورية طرابيزون، معتمداً على ماورد بشأنها فى رحلة طافور .

ثم كانت بعدئذ ترجمة مالكولم ليتس فى سنة ١٩٢٦ التى قدّم لها بمقدمة استعرض فيها فصول الرحلة ، وقد ترجمها عن الإسبانية وزوّدها بكثير من الحواشى التى أصاب فى معظمها وجانبه الصواب فى القليل منها ، ولكنه استطاع بهذه الترجمة الإنجليزية أن يجعلها قريبة إلى يد الكثيرين من البحاث والقراء الذين تقف الإسبانية حائلا بينهم وبين مطالعتها والاستفادة منها بالصورة المرجوّة ، ولقد كانت هذه الترجمة الانجليزية حاملة المؤرخ الروسى

فازيلييف Vasiliev على كتابة بحث له فى مجلة بيزانتيوم (١٩٣٢) أشار فيه إلى زيارتَىْ طافور للقسطنطينية، واكتفى فازيلييف باقتباس صفحات مطوّلة من الرحلة شغلت معظم المقال، كما أشار فى الوقت ذاته إلى الاختلافات البسيطة بين الأصل الإسبانى وترجمة ليتس.

نستدل من هـذا الثبت على أن استعمال « رحلة طافور » كان مجزوءا، ولكن هذا الاستعمال بواسطة أعلام البُحّاث وجهابذة المؤرخين يشير بجلاء إلى القيمة الضخمة التى ضمّنها طافور كتابه، والتى كانت المصدر الأساسى لدراسات عميقة متزنة؛ على أن هناك جوانب أخرى ما زالت مطوية وأخصها الأوضاع الاجتماعية وأساليب الحيـاة اليومية فى البلاد والمدن التى زارها رحالتنا، وهى جوانب تعتبر ملامح صريحة وجديرة عن ذلك العصر وتلك البقـاع، وعنى بهـذا الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور فقد تناول هذه الناحية فى دراسته عن (العصر المماليكى فى مصر)، واستعمل الرحلة فى إمداده بمادة جديدة عن القاهرة حينذاك، وكذلك الدكتور أحمد درّاج فى رسالته عن عهد السلطان برسباى. وإن الصفحات التى تركها طافور عن القاهرة لجديرة بأن تكون نواة لبحث أو بحوث تضيف جديداً إلى معلوماتنا عن مصر القرن الخامس عشر.

* * *

وبعد فإنى أقدم هذه الرحلة لأول مرة فى لغة الضاد، راجياً أن تكون معواناً للبحاث، ومن الله التوفيق ؟

حسن حبشى

(ض)

obeikandl.com

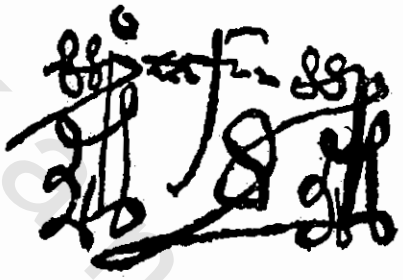

إمضاء طافور من وثيـــقة
محفوظة فى أرشيفات قرطبة

obeikandl.com

obeikandl.com

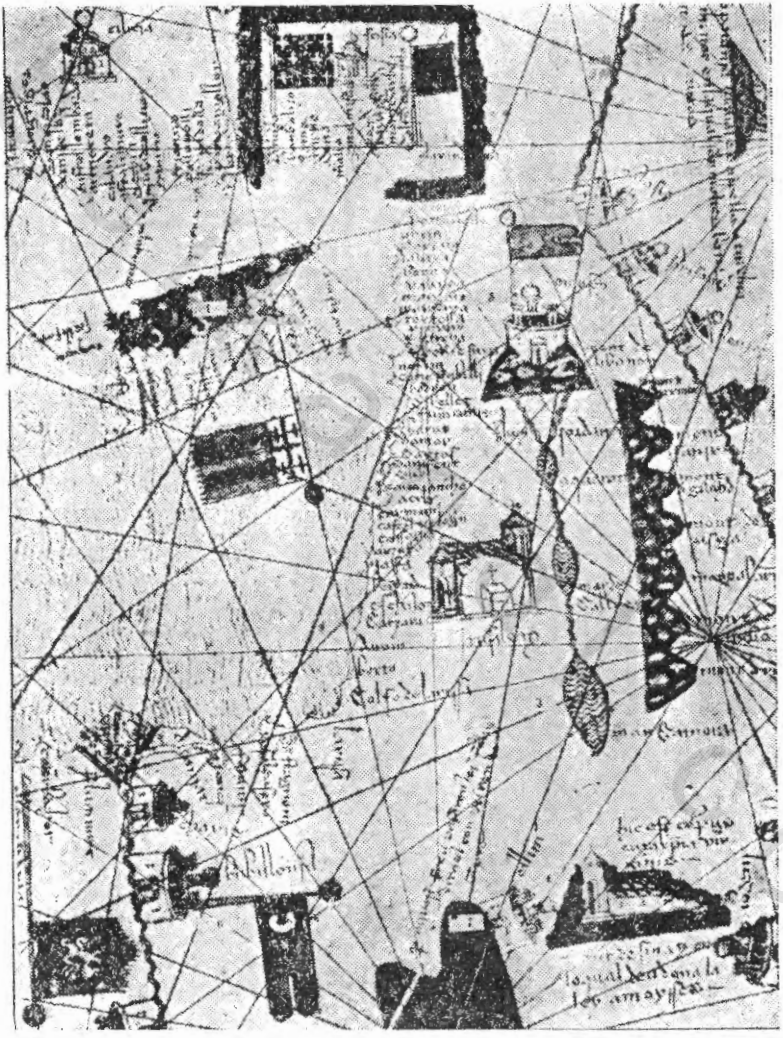

قسم من خريطة كتلانية للعالم سنة ١٣٧٥